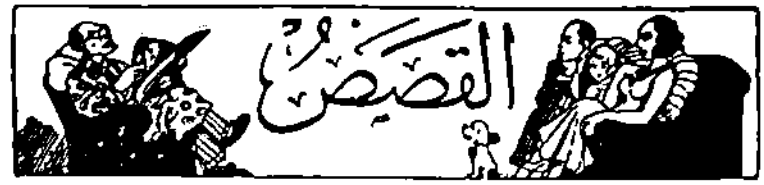

قانصـــوه الغوري

سلطان مصر الشهيد

للأستاذ محمود رزق سليم

الفصل الخامس

يوم استقبال

برح السلطان الغورى قصره الكبير عدة مرات إلى ناحية النيل ، ليراقب نشاط العمل فى بناء السواق التى أمر بإنشائها لتمد حدائق الميدان بالمياه العذبة المتدفقة فى القنوات الخاصة بين النيل والقلعة

وفى أحد أيام ٩١٥ هـ كان العمل فى السواق والقنوات قد تم . وانسلت مياه النيل جارية تسعى إلى البساتين السلطانية . فأشاعت فيها حياة جديدة . ضحكت بها الأرض عن زرع نضر ونبات وسيم . واهتزت الأشجار وتثنت غصونها تثنى السكارى النشوان . ودبت بشاشة الحياة فى الأعواد ، فاخضر يابسها وانبسط عابسها ، وتجمع نوارها وأشرقت أزهارها . ودنت قطوفها ، وألقت على الأرض ظلا ممدودا

وكان كل بناء فى الميدان قد أخذ سمته إلى الكمال كما شاء السلطان : من قصور فخمة إلى غرف بضة ، ومن مقاعد وثيرة إلى سلالم مدرجة ، ومن جداول رقراقة إلى بركة مموهة . إلى غير ذلك مما ينم عن ترف أصيل وعز أثيل ، فيه للعين جلوة ، وللنفس سلوة ، وللأحبة دعاء ، وللمسرة نداء ..

وأراد السلطان أن يكتمل أنسه ، ويبتهج مجلسه ، بالعناية من أمراء دولته ، والجلة من أعيان مملكته ، والصفوة من رجال سلطنته ، ليقضى معهم يوم فرح وليلة سرور . ويتذاكرون بعض الشؤون ؛ ويزيدون فى المودة رباطا ؛ وفى المحبة وشيجة ، وليقاسموه النعمة بما بناه ، واللذة بما شاده ، وليسمع منهم أحاديث الثناء عليه ، وأناشيد الدعاء له ...

* * *

انتشر الخدم ورجال القصر ، منذ صبيحة هذا اليوم فى أرجاء الميدان ، ينظفون وينظمون ومعهم البستانيون ، فجنوا من الفواكه ، ومن الأزهار ما ابتسم ، وفرشوا القاعد بحشياتها الثمينة الوثيرة ، وفصلوها بالوسائد الحريرية ، ونشروا أمامها البسط الهندية النفيسة . ثم زينوا ما بين فرجها بطاقات من الورود والرياحين ، ونثروا من فوقها حمائل القناديل الزيتية الفنية البديعة ، وفى الصدر كنت ترى مقعد السلطان يمتاز عن غيره بعلو يسير مجللا من الممتاز من الحشيات والوسائد ، وقد نصبت من فوقه قبة مدورة كبيرة من حرير خالص ذات أهداب ذهبية منتظمة

وقد أمر السلطان أن تملأ البركة الكبرى من ماء النيل عن طريق قناتها الخاصة ، وبث مماليكه وغلمانه بين أسواق القاهرة وحدائقها ليجمعوا ما يستطيعون جمعه من الورد ... ثم نثروه فى البركة ؛ فاختلط شذاه بعنبر مائها . وقام على سطحها وعام ، وابتل وجهه منها واخضل ، وفتح فمه فنهل من مائها وعل ، فدار على قدمه ساكرا ، وانطلق لسانه شاكرا ، وبنى للسلطان عرشا على الماء ، وعطر بذكره الأنجاء

وحول هذه البركة اجتمع قراء المدينة ووعاظها يقرءون ويذكرون . حتى دنا منهم الليل ، فانصرفوا فى هدأة منه بعد ما أصابوا من الطعام والشراب ما لذ وطاب ، وليثوا زمنا حالمين بما رأوا من لذة ونعيم

* * *

كان الطهاة قد شمروا منذ الصباح عن ساعد الجد . يطهون

الطعام ، ويتأنقون فى طهيه ما شاء لهم الفن والابتكار . ويبدعون فى تنظيم أنواعه وتلفيق صنوفه ، وتصفيفها بما ينبئ عن ذوق سليم ، يناسب هذا الحفل العظيم ، وحشدوا لذلك مئات من الدجاج والأوز ، وعشرات من الضأن السمين ، وشنان من الماء القراح البارد ، وجفان الفاكهة اللذيذة ما بين تفاح وكثرى وأعناب ، وهيئت أوانى الحلوى التركية والشامية والمصرية . إلى غير ذلك مما أنفق عليه نحو ألف دينار ، فى ذلك الزمن الرغد الرخى الرخيص

وما إن انصرف القراء والوعاظ حتى مدت عشرات الأسمطة الحافلة المنمقة ، وامتلأت الموائد بالأوانى الخزفية وغير الخزفية ، ورص فوقها نحو أربعمائة صحن صينى . ثم وزعت المأمونية الحلوى كل قطعة منها نصف رطل ، وفاضت أطباق الأحمال والطير ...

وأهل السلطان وفى إثره أقبل الجمع . واتخذ السلطان مكانه فى المقعد السلطانى تحت القبة ، وعن يمينه جلس قضاة الشرع والعلماء والكتاب والمباشرون ومن على شاكلتهم من طبقة المتممين ، وعن يساره جلس الأمراء فى أبهة أزيائهم وروعة أسلحتهم ، وبجانبهم عدد من الأعيان

وانتشر فى الميدان حوله كثير من الجند والمماليك الفورية يحافظون على الجمع الحافل ، والعامة عن كثب تروح وتغدو ، وتحدس ما يجرى فى داخل الميدان ، ويظنون ما شاءت لهم الظنون

أكل الأضياف هنيئا وشربوا مريئا . وبعد اطمئنانة انصرف الجمع إلا عددا من العلماء والأمراء استبقاهم السلطان ليعاذبهم أطراف الأحاديث ويتذاكروا مما شؤون الدولة ، ويقلبوا ما مضى من أيامها المجيدة ، ويرددوا ما تنشد من أحلامها السعيدة

فقال السلطان : إن ليلتنا هذه من أسعد ليالى السلطنة

فقال أحد القضاة : أجل يا مولانا إنها للعين قرة ، وفى جبين الزمان غرة ، أدام الله لمولانا الابتهاج والمسرة . وأطال عهد حكمه السعيد .. إن هذا الميدان ليدين بتلك الحياة الجديدة المشيئة السلطانية الشريفة . لله ما أجل القصر والبستان ! وما أروع البركة والمجرى ، وما أبهى الغرف والمقاعد ! إن تلك القبة المضروبة فوق المقعد السلطانى الشريف وهذه البسط والوسائد الحريرية وهذه الموائد الشهية ، ومن اجتمع حولها من أفذاذ الرجال ، لتذكرنا بما يرويه التاريخ عن الملوك السعيد من خلفاء بغداد . أحيا الله بمولانا دولة الإسلام ، وأعز به جانب الدين . .

السلطان : الفضل فى هذا التنسيق والنظام يرجع إلى ناظر الخاص المقر علاء الدين وأعوانه

علاء الدين : مولانا ! الشكر لله والمقام الشريف . إنما تم كل شئ بإرشاد مولانا وإشارته

السلطان : كنا نود أن يشاركنا الخليفة الجديد فى ليلتنا هذه ... ما رأيك أيها القاضى فى الخلافة وما قام بسببها من خلاف ؟ ألا ترى أننا حسمنا أمرها على خير وجوهه ؟

القاضى : أجل يا مولانا ! لقد كاد يستشرى النزاع بين الخليفة يعقوب وابن عم أبيه خليل ؛ فقد ادعى خليل أن يعقوب لا يصلح للخلافة لأنه أعمى . فرد عليه ابنه الناصرى محمد قائلا « وأنت أيضا لا تحسن قراءة الفاتحة » ! فلما أمر مولانا باختبار خليل وجدناه وهو يقرأ الفاتحة قد تمتم فيها وتلعثم ، ولم يكمل قراءتها ؛ وذلك للثغة فى لسانه . وقد كنت عادلا يا مولانا حينما وكلت الخلافة إلى الناصرى محمد وأقررت عهد أبيه بها إليه . ونرجو الله سبحانه وتعالى أن يجعل عهدكا عهد يمن وإقبال ورخاء للمسلمين أجمعين

السلطان : إن عامنا هذا عام رخاء . ولنا فى وفاء النيل فيه فأل حسن ، فقد بلغ نحوا من عشرين ذراعا . ولا نزال نحتفل بعيد وفائه شكرا لله على نعمائه . ونحن قوم نتفاءل دائما

القاضى : إن البلاد جميعها لتتفاءل بسلطنتكم المجيدة . والدين أمرنا — بجانب الحذر والحيطة — أن نتفاءل ونقابل الحياة دائما بالأمل والرجاء . وكما نعمل للآخرة كأننا نموت غدا ، نعمل للدنيا كأننا نعيش أبدا ...

السلطان : صدقت ! وإن دأبي الإنشاء والبناء . ولن آلو جهدا في أن أترك بكل موضع أثرا مشيدا نافعا ، وأن أسلك سبيلي لإعلان شأن السلطنة وإظهار عظمتها ، وللترفيه عن عامة سكانها ، وتزويد البلاد بما ينمي ثروتها ويوسع نفوذها . إن سلطنة مصر اليوم — بعون الله — أقوى سلطنة إسلامية ، وهي من أوسع دول الأرض جاها وقوة ومالا ، وستبقى كذلك ولن ينال منها العابثون منالا .. أين القاضي معين الدين ؟

(يأتي القاضي معين الدين بن شمس ، وكيل بيت المال ونائب كاتب السر — وكان في وجهه دمامة — ثم يتقدم إلى جانب السلطان من الخلف ليقرأ على مسامعه المراسلات والقصص — المظالم —)

السلطان : ما عندك من أخبار البلسان ؟ لقد كانت بلادنا تفخر بزرعه في أرضها لأن له دهنا عجيبا ينالي ملوك الفرنجة في ابتياعه ، إذ يستخدم عندهم في ماء العمودية . ثم انقطع تبته من بلادنا جملة

معين الدين : لقد خاطبنا بلاد الحجاز عندما علمنا أن البلسان ينبت في بعض جهاتها ، وكلفنا بعض نوابنا فحملوا إلينا شجيرات منه غرسناها بالمطرية ، فنبتت نباتا حسنا يبشر بمستقبل عظيم . فليطمئن بال مولانا

(يميل السلطان إلى بعض خاصته ، ويسر إليه أنه يخجل من مماليكه حينما يرون رجلا مثل معين الدين يقرأ قصصه ومراسلاته)

السلطان (موجها الخطاب إلى معين الدين) : وما أخبار الشاه إسماعيل الصوفي ؟

معين الدين : يعلم مولانا أن الشاه إسماعيل الصوفي ، كان قد تحرك وزحف على الممتلكات الشريفة ، وأعد له مولانا تجريدة كبرى لرده وتأديبه . فلما وردت مراسلات الأمير «علي دولات» أمير التركمان ، بأنه هزم الشاه هزيمة منكرة ، أوقفت التجريدة . وقد أرسل إلينا « علي دولات » عددا من رءوس قتلى العجم من جنود الشاه إسماعيل ، فعلقت على باب زويلة . ولكن الآن يقال إن جند الشاه يعبثون بأطراف إمارة بغداد

السلطان : لقد وفد إلينا رسول من لدن الشاه ينبئ أن جنوده زحفوا على ممتلكاتنا خطأ وبغير إذن منه ، فقبلنا عذره وخلعنا على رسوله .. ولكنه لا يزال في الخاطر من عمله شيء .. فما الرأي عندك أيها الأمير قرقماس ؟

الأتابكي قرقماس : يا مولانا .. الرأي عندي السمع والطاعة لك . إذا أمرت فالسيوف مسلولة ، والرماح مشروعة ، والنفوس تواقة إلى الجهاد والنصر

للفصل بقية

محمود رزق سليم

للمؤلفين وناشري الكتب القديمة

شركة مطبعة مصر في خدمتكم

تؤدي التسهيلات المجزية في إخراج كتبكم . اتصلوا بها

تجدوا أجمل طبع وأحسن اتفاقات